الجاحظ و الاستطراد

الاستاذ المساعد الدكتور
علي الطاهري
جمهورية ايران الإسلامية
جامعة ازاد الاسلامية

المقدمة

الجاحظ لقب ابي عثمان عمروبن بحر بن محبوب الذي ولد بالبصرة(١) في اوائل سنة ١٥٩ هـ/٧٧٦ م و نشأفيها و مات بها عام ٢٥٥ هـ/ ٨٧٢ م (٢) .. فالجاحظ بصري المولد و المنشأ و الوفاة، نبغ فيها حينما كان العراق عين الدنيا و البصرة عين العراق(٣) و هو في حقيقته صورة بصرية كاملة تتمثل فيه هذه المدينة(٤).

و البصرة كانت يومئذٍ مهد العلم و منتدي الادب(٥) و أتاحت له تلك المدينة الزاخرة بصنوف الاجناس و الوان العقول ان يوسع آفاقه العقلية و الأدبية؛ و كتابه «الحيوان معرض لكل الثقافات، عربية و يونانية و فارسية و هندية، و الدينية من مانوية و زردشتية و دهرية و يهودية و نصرانية و اسلام(٦) و من الطبيعي أن يكون الجاحظ عبقريا جامع الأطراف و أديباً ذا فنون مختلفة و كاتباً يعرض في كتبه الكثيرة ما يجري في بيئته من علم و أدب و شعر و رواية و حديث و كلام و جدل و ظرافة و مجون و سياسة يري بواطن الأمور و خفاياها في عرض فني رائعٍ. وكل ذلك في أسلوب رشيق، سامي البلاغة، بنبض بالحياة و يرشح بالنفحة الأدبية بما فيه من استشهادات شعرية و نثرية(٧). و كما يقول المسعودي في مروج الذهب : " وكتب الجاحظ- مع إنحرافه المشهور- تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها

أحْسَنَ نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجْزَلَ لفظ، وكان إذا تخوَّفَ مَلَلَ القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب حسان: منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغُرَر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر عليه لاكتفى به"(٨).

فعلينا و نحن ندرس استطراد الجاحظ فيما يكتب ان نشير الي النثر في العصر العباسي اشارة عابرة لنبين موقع النثر في الادب العباسي و موقع الجاحظ بين كتّاب ذلك العهد.

لم يقتصر النثر في العصر العباس علي الكتابة في الدواوين و انشاء الرسائل كما كان في العصر الاموي، بل تعدي ذلك الي أغراض شتّي كالتصنيف و الترجمة و المقالات و المناظرات و العتاب و التعازي و التهاني و الاستعطاف و غير ذلك من الاغراض التي تفرضها الحياة الحضرية و حلّت الكتابة محل الخطابة و تنوعت الدواوين فكان منهم كتّاب الخراج و كتّاب الجيش و كتّاب الرسائل في بلاطات الخلفاء و هؤلاء هم الذين تفنّنوا في الكتابة و أبدعوا.

و قد نهج الكتّاب في اوائل العصر العباسي نهج عبد الحميد ثم ما لبثوا أن سايروا عصر هم عصر الترف فمالوا الي الزخرفة و التطويل بعد أن كان اسلوب القدماء يعتمد علي الايجاز و يمكن أن نقسم كتاب هذا العصر الي أربع طبقات ظهرت كل طبقة في فترة من فتراتة.

١- طبقة ابن المقفع
٢- طبقة الجاحظ
٣- طبقة ابن العميد

٤- طبقة القاضي الفاضل

و من ميزات الطبقة الثانية التي علي رأسها الجاحظ أن اسلوبها يمتاز بسهولة العبارة و جزالتها و تقطيع الجمل الي فقرات مقفاة أو مرسلة و الإطناب في الجمل و الالفاظ و الإستطراد و مزج الجد بالهزل لرفع سآمة القارئ و تحليل المعاني و استقصاء هاو الإعتماد علي العقل و الإعتراض بالجمل الدعائية(٩). تظهر فيه شخصية الجاحظ ظهوراً تاماً حتي لتستطيع من غير كثير عناء أن تعرف أي الكتب له و أيها ليست له كما يقول «شوقي ضيف: اكبر الظن أنّنا لا نبعد اذا قلنا ان الصفات الفنية الأساسية في كتابات الجاحظ هي الواقعية و الإستطراد و ضروب من التلوين الصوتي و أخري من التلوين العقلي بحيث لاتقرأ أي أثر من آثاره إلاّ و تجد هذه العناصر الأربعة لصنعته ماثلة تحت عينيك إذ يسعي الجاحظ دائما إلي أن يروي لك الوقائع كماهي دون تمويه، كما يسعي إلي الإستطراد حتي لايسأم القارئ و لاينالـه شئٌ من الكدّ و السوق العنيف، و أيضاً فإنّه كان يشفع كتاباته دائماً بتلوين صوتي أنيق و تلوين عقلي بديع.(١٠) .

الإستطراد

الإستطراد في اللغة مصدر" إستطردَ الفارسُ لقرنه" إذا طردَ فرسه بين يديه يوهمه الفرار، ثم يعطف عليه علي غرّة منه و هو ضرب من المكيدة(١١) وهو من" الطرد " و منه الحديث الشريف "التهجد مطردة للحسد" أي مبعدة له ينتزعه من صاحبه و ينفيه عنه و يقال أيضا إطّردَ الشيء، أي تبع بعضه بعضا و جري، و منه قول ابن عباس (رض) للإمام علي(ع) في خطبة الشقشقية حين نهض إليه رجل من أهل السواد فناوله كتابا فأقبل عليه يقرؤه و شغل عن الخطبة فلم يتمّها.(١٢) حيث قال:" يا امير المؤمنين،لو إطّردتَ خطبتَك من

حيثُ أفضيتَ" (١٣) و الإستطراد و إن كان في الأصل ظاهرة من ظواهر العقل غير الناضج و لذا يقلّ عند الكبار و المثقفين و يكثر عند الأطفال و غير المثقفين وإن ذلك لا يمنعه أن يعدّ نوعا من البديع يحمده علماء البلاغة و ينوهون به و يصطنعه الأدباء و يفتنون فيه لأنه لا يعدو أن يكون بموضعه كالجملة الإعتراضية بموضعها.(١٤) و هو في الاصطلاح أن يكون الناظم أو الناثر آخذا في غرض من أغراض الكلام من غزل أو مدح أو وصف أو غير ذلك فيخرج منه إلي غرض آخر(١٥). أو أن يأخذ المتكلم في معني و قبل أن يتمّه يأخذ في معني آخر و يسميه ابن المعتز حسن الخروج، او الخروج من معني الي أخري(١٦).

و هذا دأب الجاحظ علي الأغلب و في اكثر مؤلفاته. و يمتاز أسلوب الجاحظ في الإستطرادات الكثيرة فما يمسك غرضاً إلاّ تجاوزه إلي آخر بدافع من شعر أو حديث أو آية،أو مثل أو غير ذلك يستهشد به(١٧) و يقف عنده فيخرجه عن موضوعه إلي أغراض مختلفة حتي يتيه بقارئه ثم يرجع به إلي الحديث الذي خرج عنه بعد أن ينسيه إياه.(١٨)

فهو لا يصبر علي موضوع واحد فإذا تكلم في شيءٍ خرج منه إلي أشياء و مزج العلم بالأدب ولم يقتصرعلي ذكر البراهين النظرية بل استعان بالتاريخ و بالشعر، و بما يعرف من أحداث و ماجرّب هو نفسه من تجاريب و مزج ما تعلم بما قرأ، بما سمع، بما شاهد، بما جرّب.(١٩)

اعتراف الجاحظ باستطراده و تعمده فيه

الجاحظ بنفسه يعترف باستطراده دفعاً لسآمة القارئ و بعثاً إلي مواصلة القراءة كما ينص عليه في مواضع من كتبه حيث يقول:

«قد عزمت والله الموفق أني أوشح هذا الكتاب و أفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر و ضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلي باب و من شكل إلي شكل، فاني رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة و الأغاني الحسنة و الأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها و ما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، و إذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال و كثر اصلح(٢٠) و يقول في موضع آخر: «و أنا أعلم أنّي لو فسّرت لك معاني هذه الأشعار و غريبها لكان أتم الكتاب و أنفع لمن قرأ هذه الأبواب و لكني أعرف ملالة الناس الكتاب إذا طال (٢١) و اشتهر في اوساط الباحثين في التراث الأدبي عند العرب أنّ الجاحظ هو مؤسس ما عرف بمنهج الإستطراد في التأليف الأدبي ، وقد تجلّى هذا المنهج في جملة من السمات التي برزت واضحة في تراثنا الأدبي بوجه عام ، ولاسيما في الجزء الجاحظي منه وفي مقدمة تلك السمات (سمة الفوضوية) التي تعني من جملة ما تعنيه عدم وحدة الموضوع في الكتاب ، ولّما كان الجاحظ هو المؤسس الحقيقي لهذا المنهج في تراثنا فقد عده بعض الدارسين المسؤول الأول عن الفوضى التأليفية في التراث العربي(٢٢) و الحقيقة أنه تبع الكتّاب القدماء و استدلّ في استطراده علي ما فعله الأوائل في صغار الكتب و اعتبر فعلهم في مؤلّفاتهم القصيرة مبررّا له في تآليفه الطويلة التي قد تستغرق مجلدات عدّة، حيث قال:" و إذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال و كثر أصلح".

مدى استطراد الجاحظ

و قد يطول استطراده فيستغرق عدة صفحات و قد يقصر، فما يجاوز بضعة أسطر. فإن دأب الجاحظ في تآليفه أن يرسل نفسه علي سجيتها فهو لا يتقيد بنظام محكم

يترسمه و لا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه و لذلك تراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا ثم يدعها، في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخري ثم يعود إلي ما سلف من قبل و قد كانت هذه سبيل كثير من علماء دهره كما أنّ علوّ سنّه و جدّة التأليف في تلك الأبحاث التي طرقها، كل اولئك كان شفيعاً له في هذا الإسترسال و الإنطلاق(٢٣). فهو دائماً ينتقل من باب إلي باب و من أثر إلي خبر و من شعر إلي فلسفة و من جد إلي هزل في تشعب هائل حتي ليقول كارّادي فو: إن الموضوع عند الجاحظ ليس إلاوسيلة للإستطراد(٢٤).

و يذهب به الإستطراد يميناً وشمالاً ، فيتكلم في كل شيء كمايذكر نفسه في كتاب الحيوان، طريقة تأليفه في عدة مواضع فيقول: «متي خرج (القارئ) من آي القرآن صار إلي الأثر و متي خرج من أثر صار إلي الخبر ثم يخرج من خبر إلي الشعرو من الشعر إلي نوادر و من النوادر إلي حكم عقلية و مقاييس سداد. ثم لا يترك هذا الباب و لعله يكون أثقل و الملال إليه أسرع حتي يفضي به إلي مزح و فكاهة و إلي سخف و خرافة و لست أراه سخفا. (٢٥)

هذا كان دأب الجاحظ في أكثر كتبه ولكن طريقته في تأليف الرسائل تختلف اختلافاً ما، لأنّ الرسائل بطبيعتها معينة الموضوع محدودة الغرض لاتأذن لعادة الإستطراد أن تداخلها و تشتت عناصرها (كثيراً) فكل الرسالة منها وحدة قائمه بذاتها قد توفر الكاتب عليها، و وجه فنه إلي غايتها فمضي فيها نشيطاً موفورة القوّة لاتأخذ طبعه فترة يضعف فيها فيتكلف و يتصنع و لا يناله ملل يرهقه ويقف به، فيلتمس ما يبعث نشاطه فيغير سبيله و يحوّر منهجه ... و كل منها يمثل ناحية من نواحي الجاحظ الفنيه كما أنها خيرما يعين علي تصور حياته الظاهرة و الباطنة(٢٦)

علة الإستطراد

و إنما يسير الجاحظ علي طريقته التأليفية من المزواجة بين الأحاديث الطويلة و الرسائل المسهبة بالطرف القصيرة و النوادر المقتضبة ايثاراً لاستهواء القرّاء و حرصاً علي استجلاب رغبتهم و دفع السآمة و الملل عنهم و قد كان من الكتّاب الذين ينظرون إلي القارئ و يرعون جانبه و يوجهون إلي رضائه همهم، و هو يعلم أنّ الرسائل الطويله تثقل علي جمهورالقراء، كما يقرّر ذلك إذ يقول: إلا أني لا أشك علي حال أن النفوس إذ كانت إلي الطرائف أحنّ و بالنوادر أشعف و الي قصار الأحاديث أميل(٢٧). فهو يراقب دائماً حال القاري لئلاّ يعتريه الملل و السآمة و عند ما يشعر في قارئه سآمة ضيئله او ملالاً قليلاً يتداركه بنادرة طريفة و حكاية مضحكة لتتركه السآمة. فتمتاز مدرسة أبي عثمان الأدبية بأسلوبٍ عرِف باسمه، يقوم على التّنوع اللّفظي والإستطراد من موضوعٍ إلى آخر والإسهاب والبُعد عن الصناعة اللّفظية والإرسال، وقد نظر البعض إلى الإستطراد عند الجاحظ على أنّه نقطة ضعفٍ في أدبه ولكنّ أبا عثمان اعتمده حتى يزيل الملل من ذهن القارئ. فالإستطراد، وبخاصّة في المواضيع العلمية، كان أشبه بمحطّة استراحة (علي قول بعض المعاصرين) تجعل القارئ مستريحاً و تحرّكه نحو الموضوع بدافع ذاتي و تمعن في تشقيق الكلام و هو حريص أشدّ الحرص علي هذه الناحيه و قد كان لهذا الحرص أثر كذلك في منهج الكتاب و أسلوبه (كما يقول طه الحاجري:) فهو دائماً يقدر ملل القارئ و غلبة السآمة عليه فيلتمس له ما ينشطه، فيقول مثلاً: «و إن كنا قد أمللناك بالجدّ و بالإحتجاجات الصحيحة و المروجة لتكثر الخواطر و تشحذ العقول فإنا سننشطك ببعض البطالات و بذكر العلل الطريفة و الاحتجاجات الغريبة(٢٨).

و في موضع آخر يقول «و أنا أعلم أني لو فسرّت لك معاني هذه الأشعار و غريبها لكان أتمّ الكتاب و أنفع لمن قرأ هذه الأبواب و لكنّي أعرف ملالة الناس للكتاب إذا طال (٢٩) و نري أيضاً أن لسوء ظن الجاحظ بجمهور القراء و افتراضه فيهم قصر الهمة كان له أثره الكبير في الإستطراد الغالب عليه في الحيوان أو غيره من الكتب.

و من الواضح أنّ مقصد الجاحظ من مزاولة الكتابة و التصنيف كان التسلية و المسامرة أكثر من الإفادة و التعليم و لما اشتهر أمره و انتشر ذكره كان يعرض كتبه في أحسن صورة لئلاّ يستثقل الناس قراءتها و الناس إنّما يطلبون اللذة و المتعة أكثر من التعليم و الإستفاده و قد تفنن الجاحظ في شتي فنون العلم، و تناول أيضاً مباحث الطبيعة(٣٠).

ويمكن أن نستشفّ بالتأمل في كتب الجاحظ غاية أبعد من الغاية المتمثّله في دفع الملل والسأمة عن القارىء علي كما يقول يوسف حمزة زردة (٢٠٠٦):" وقد تبين لنا أنه قد تظاهر بالرغبة في دفع الملل والسأمة عن القارىء بوساطة الإستطراد. ولكن غايته القصوى من هذا الإستطراد كانت تتجاوز ذلك إلى بث مفردات معرفية محظورة أو مضيّقٍ عليها تنطوي على مواقف له وآراء كثيرة لم يكن قادرا على التعبير عنها تعبيرا صريحا. فكان الإستطراد وسيلته الذكية إلى " تعمية " أو تمويه دلالات تلك المفردات التي لاحق السلطان معتنقيها بتهمة الزندقة، وحاربهم بلا هوادة. وقد تجلّت لنا تعميته تلك المفردات في ثلاثة أنماط أسلوبية بارزة هي:

١. التعمية بوساطة بعثرة أجزاء المعنى أو الموقف المحظور في أنحاء متفرقة من الكتاب.

٢. التعمية بوساطة الإتيان بالمفردة المعرفية الدالة على أكثر من معنى، أحدها محظور أو مشبوه في سياق حديثه عما هو غير محظور من معانيها.
٣. التعمية عن طريق إيراد النوادر والملح والفكاهات"(٣١).

نماذج من استطراد الجاحظ

نعرض هنا القول بنموذج من نماذج الإستطراد في كتاب «الحيوان كفاية عن كتبه كلها؛ فمثلاً في الجزء الخامس من الكتاب يبدأ الكلام في النار و يقول: نبدأ في هذا الجزء بتمام القول في نيران العرب و العجم و نيران الديانة و أقدارها عند كل ملّة و ما يكون منها مفخراً و ما يكون منها مذموماً و ما يكون صاحبها بذلك مهجوراً. ثم يبسط القول إلي حلاوة العسل و حموضة الخل و بياض الثلج و صفرة الذهب و خضرة البقل ثم يأتي بطريفة و يقول: حكي عن رجل أحدب سقط في بئر، فاستوت حدبته و حدثت له أدرة في خصيته فهنّأه رجل عن ذهاب حدبته، فقال الذي جاء شرّ من الذي ذهب. ثم يعرض القول بالكمون و يناقضه و كثيراً ما يأتي بكلام أستاذه النظام عنها. ثم يعقد باباً في الردّ علي منكري الكمون و أيضاً يعقد باباً في المجاز و التشبيه بالأكل و باباً في مجاز الذوق و يستوفي الكلام فيه مع أمثله شعرية و غيرها ثم يرجع إلي قول النظام و النار و بعد عدة صفحات يبادر بالأضواء و الألوان و يأتي باشعار كثيرة في ألوان النار و علة اختلاف ألوانها. ثم ينتقل إلي تعظيم زرادشت للنار و يقول: وزرادشت هو الذي عظم النار و أمر بإحيائها، و نهي عن إطفائها و نهي الحيض عن مسها و الدّنوّ منها. و زعم أنّ العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد و الزمهرير و الدمق.

و يطيل الكلام في البرودة و الثلج و ما قيل فيها من الأشعار و في صفة الحر و يرجع ثانية إلي احتجاج النظام للكمون فيتابع الكلام في الصواعق و ما

قيل فيها ثم يذكر ألوان الماء و تشابهها مع الهواء. ثم يشعر نفسه بأنه ابتعد عن الأصل و هو النار ـ و ان كان الأصل الحيوان.

حيث يعترف بالإستطراد و يقول: «ولولا أنّي أتكل علي أنك لا تملّ باب القول في البعير حين تخرج إلي الفيل و في الذرة حتى تخرج إلي البعوضة، و في العقرب حين تخرج إلي الحية و في الرجل حين تخرج إلي المرأة، و في الذبان و النحل حين تخرج إلي الغربان و العقبان، و في الكلب حين تخرج إلي الديك، و في الذئب حين يخرج إلي السبع و في الظلف حين تخرج إلي الحافر و في الحافر حين تخرج إلي الخف و في الخف حين يخرج إلي البرثن و في البرثن حين تخرج إلي المخلب و كذلك القول في الطير و عامة الأصناف؛ لرأيت أن جملة الكتاب و إن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يمل و يعتدّ علي بالإطالة، لأنّه و إن كان كتاباً واحداً، فإنّه كتب كثيرة وكل مصحف منها فهو أمّ علي حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتي يهجم علي الثاني ولا الثاني حتى يهجم علي الثالث، فهو أبداً مستفيد و مستطرف، و بعضه يكون جماماً لبعض، و لا يزال نشاطه زائداً(٣٢). فهو لا يصبر علي موضوع واحد في كتابه هذا فاستطرد لا إلي حد و أخرج الموضوع من عظة و اعتبار إلي معلومات واسعة في الحيوان و غير الحيوان منه إلي موضوعات مختلفة و قد لا تمتّ بصلة إلي الحيوان.

و لا يظنّن ظانّ أن الكتاب و قد سمّي الحيوان ـ قد اقتصر علي الكلام في الحيوان بل لا نبعد إذا نحن قلنا إن ما فيه عن الحيوان أقلّ مما فيه غيره. فقد استغرق الجزء الأول و الثاني من الكتاب الكلام في الكلب و الديك و المفاضلة بينهما و احتجاج صاحب الكلب للكب و صاحب الديك للديك، و يستوفي كل ما قيل في ذلك من آية أو حديث أو شعر أو قول لصاحب المنطق

أو قصة أرسطو كاتّخاذ الجنّ الكلاب مأوي لها و اعتقاد العرب أنّ دم الأشراف يشفي منه إلخ، و لكنه في كل ذلك يخرج عن الكلب و الديك إلي موضوعات لا تخطر علي البال.

و أمّا كتاب البيان و التبيين و هو كتاب في الأدب من آخر ما ألّف الجاحظ كما ذكرناه آنفاً و استطرد فيه كثيراً كما بدأه بالتعوذ من العي ... و انتقل إلي فصاحة اللسان و نعمتها و العي ورداءته و عاب التشّدق و استطرد من ذلك إلي فصاحة و اصل بن عطاء شيخ المعتزله و لثغته في الراء و إنه كان يقول القمح بدل البرّ و جرّه ذلك إلي الكلام في أنّ البر أفصح أو القمح و انتقل منه إلي اختلاف لغات العرب في استعمال الألفاظ ... ثم رجع إلي واصل و ما كان بينه و بين بشار و ذكر قصائد، في مدح المعتزلة، و إذ كان واصل ألثغ فقد عقب ذلك بالكلام علي اللثغة و الحروف التي تدخلها اللثغة و التي لا تدخلها و استطرد من اللثغة إلي عيوب اللسان علي العموم من فأفأة و تمتمة ... و يطول بنا القول لوسرنا معه في الكتاب كله نتتبع خطاه و نرصد انتقالاته و حسبنا أن نذكر هذا مثلاً يبين الفوضي في تأليفه و لا تظنّ أن موضوعاً من هذه الموضوعات التي ذكرنا قد فرغ من الكلام فيه فستري في ثناياه الرجوع اليه مرّة بعد مرّة(٣٣).

وأما الجزء الثاني من الكتاب يبتدؤه بحمدالله تعالي و الصلاة علي النبي(ص) ثم يقول أردنا أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني بالرد علي الشعوبية في طعنهم علي خطباء العرب و ملوكهم. ثم يعرّف الخطبة البتراء و يذكر نماذج منها ثم يشير إلي طبقات الشعراء مع أمثلة شعرية منهم و في فقرة أخري ينقل خطبة النبي (ص) في الوداع(٣٤) ، ثم ينقل كلام أبوبكر لعمر حين استخلفه عند موته و وصية عمر للخليفة من بعده و رسالته الي ابي

موسي الأشعري. ثم خطباً لعلي بن ابي طالب (ع)(٣٥) ثم خطب الصحابة ثم ينقل أقوال الحكماء و البلغاء و يكثرفيها و تتخلل كل فقرات الكتاب التندّر والفكاهة و المزاح نحو: و سرق مزبدّ المديني (من مشهوري أصحاب النوادر والفكاهة) نافجة مسك. فقيل له: إنّ كلّ من غلّ يأتي يوم القيامة بما غله يحمله في عنقه، فقال: إذا واللّه احملها طيّبة الريح خفيفة المحمل(٣٦). ثم يعقد باباً من مزدوج الكلام و يرجع مرّة إلي الخطب و باباً في أن يقول كل انسان علي قدر خلقه و طبعه و ينقل اقوال قتيبة و ضراربن الحصين و عبدالله ابن الاهتم و غيرها نحو: قيل لطفيلي: كم إثنان في إثنين؟ قال: أربعة أرغفة (٣٧) و المزاح موجود كما ذكرنا نحو: و نظر زاهد إلي فاكهة في السوق فلما لم يجد شيئاً يبتاعها عزّي به نفسه و قال: يا فاكهة، موعدي و إياك الجنة.

و يطول بنا القول لو أننا استقصينا جميع كتبه من هذه الناحية و يملّ القارئ و يسأم، فحسبنا ما ذكرناه من إستطراده كافياً و إن لم نوفّ حق البحث و الدرس، و ليقس ما لم يقل.

الإستنتاج

نعم ها هوذا الجاحظ يذكر موضوعاً و يستطرد فيخرج منه ثم يرجع مرة ثم يترك فيرجع أخري و قد لا يرجع مما يطيل ذكره و هذا منهجه في أكثرما ألّف من الكتب.

و في كل فصل من فصول كتبه فوضي لاتضبط و استطراد لايحد. و يري البعض الجاحظ مسؤولا عن الفوضي التي تسود كتب الأدب العربي التي جرت علي منواله و حذت حذوه و كان أبو عثمان يشعر بذلك و يعتذر عنه أحياناً فهو يقول عند الكلام علي البيان (كما مرّ ضمن المقالة) «و كان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنا أخّرناه لبعض التدبير و

هو يعد في أواخر هذا الجزء أن يتكلم في الجزء الثاني علي طعن الشعوبيه علي العرب في اتّخاذ المخصرة، ثم يحاول الوفاء بما وعد في الجزء الثاني و لكنه يري أنّ الفرصة لم تسنح له فيعتذر بقوله: ولكنا أحببنا أن نصدر هذه الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين و السلف المتقدمين و الجلّة من التابعين و يمضي الجزء الثاني بأكمله، وقد لا يستطيع الوفاء بما وعد به إلا في صدر الجزء الثالث من الكتاب(كما يشير إليه محقق البيان و التبيين في المقدمة أيضا).

و الجاحظ يعترف بأنه يستطرد و بأنه يعمد إلي ذلك عمداً لأغراض: منها إبعاد ملل القارئ و سآمة السامع، و قد احتج لصنيعه بأن الأوائل قد سارت في كتبها هذه السيرة،و رغم ذلك فهو يقّر بعجزه عن التنظيم و التنسيق لما كان من مرضه و لما كان أيضاً من قلّة الأعوان كما قال في الحيوان، و من ثم كان من يقرأ كتبه يخيل إليه أنه لم يكن يعرف التركيز في تأليفه إذا ما تزال الأفكار تندفع علينا من كل صوب في غير نظام و لاسياق مطرد بل فكرة من هنا و فكرة من هناك في صورة واضحه من التشعب و التشعث، و غرضه الآخر بثّ مفردات معرفية محظورة أو مضيق عليها تنطوي علي مواقف و آراء كثيرة لم يكن قادرا علي التعبير عنها صراحة. و منها أنه يعرض لقارئيه عبر هذ الاسلوب الوانا مختلفة من العلم و الأدب و يزودهم بمفردات كثيرة في الأدب و النقد و العلوم و الرواية و الكلام و غيرها مما يمثل ثقافة عصره أحسن تمثيل، و قد ساعدته علي ذلك كله ثقافته الواسعة بجميع معارف عصره.

الملخص

ابوعثمان عمروبن بحر الجاحظ مؤلف «البيان و التبيين و «الحيوان و غير هما من المؤلفات النافعة التي تناولت مختلف العلوم و الفنون في عصره الذي ذخر بكثير من العلم و الادب. لقد برز اثره في ميادين عدّة و ادّاه نبوغه الي

أن يؤلّف في كل ما كان يشغل بال العلماء حينئذٍ فله في كل من الادب و البلاغة و النقد و العلوم و الرواية و القرآن و الكلام و غير ذلك مؤلّف او مؤلّفات يشهد باتساع دائرة معارفه و ثقافته.

الجاحظ مولع بالاستطراد فيما يكتب و المتأمّل في مؤلفاته ليري بوضوح انّ ذلك الانتاج الحافل الممتع لايمكن ان يصدر الا عن ثقافة واسعة تمثل عصره احسن تمثيل. و الجاحظ يقدر ملل القارئ و غلبة السآمة عليه في مؤلفاته الضخمة فيستطرد لئلا يستثقل الناس قرائتها و بذلك يستجلب رغبة القراء و ينشطهم في متابعة القراءَة و من جانب آخر يزودهم بانواع المعرفة و يعرض لهم كل الثقافات و الواناً مختلفة من العلم و الادب.

نريد ان نبين في هذه العجالة استطراده في مؤلفاته و خاصة في «البيان و التبيين و «الحيوان و مدي هذا الاستطراد و علّته معتمدا علي ما في ايدينا من آثاره:

الكلمات الدليلية: الجاحظ، الاستطراد، البيان و التبيين، الحيوان

Abstract

Al Jahiz Abu Uthman Amir Ibn Bahir, author of books *Al-ḥayawan* (Animals) and *Al-bayan wa al-tabyin* (Elegance of Expression and Clarity of Exposition) and Islamic theologian, intellectual, and litterateur known for his individual and masterful Arabic prose. Al-Jahiz's writing is characterized by deliberately contrived disorderliness and numerous digressions. He tries to utilize such a technique to provide reader(s) with a variety of issues but under a single topic. The individuality of his alert and lively style lies in a concern for the exact term, a foreign word if necessary, picturesque phrases and sentences which are nearly always unrhymed, but balanced by the repetition of the same idea in two different forms. In fact, using

digression increases reader's knowledge. The present article aims to examine Al-Jahiz's digression, quantity, and its cause according to his aforementioned books.

Keywords: Al-Jahiz; Digression; Al-bayan wa al-tabyin; Al-hayawan

هوامش البحث

١. معجم المؤلفين، ٥/٨
٢. معجم الأدباء ١٦/ ٧٤ و تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ٢/ ٤٧٥
٣. ثمارالقلوب في المضاف و المنصوب للثعالبي، ١٢٧
٤. الجاحظ حياته و آثاره، ١٥
٥. تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، ١٦٦
٦. ضحي الإسلام ١/ ٣٠٤
٧. البخلاء، ٧
٨. مروج الذهب ٤١٩/٢
٩. تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات، ١٥٧
١٠. الفن و مذاهبه في النثر العربي١٠٠
١١. لسان العرب ٨/ ١٣٩
١٢. من قصص الإستطراد في الشعر العربي، مجلة رسالة الإسلام، السنة التاسعة، العدد٤/٣٧٢
١٣. نهج البلاغة الخطبة:٣
١٤. من قصص الإستطراد في الشعر العربي، مجلة رسالة الإسلام، السنة التاسعة، العدد٤/٣٧٣
١٥. انوار الربيع في انواع البديع، ٦٧
١٦. البديع لابن المعتز، ٣٦
١٧. ، أسلوب الجاحظ ، العدد السادس من مجلة نور الادب
١٨. ادباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ٢/ ٢٧٩

١٩. ضحي الإسلام ١/ ٢٩٦
٢٠. الحيوان للجاحظ ٣/٧
٢١. الحيوان للجاحظ، ، ٧/ ٩
٢٢. التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ أداة القراءة مابين السطور، مجلة البعث، العدد٢٨
٢٣. مقدمة المحقق للبيان و التبيين
٢٤. الفن و مذاهبه في النثر العربي ١٠٣
٢٥. ضحي الاسلام نقلاً عن الحيوان ٤٦/١
٢٦. مقدمة «مجموع رسائل الجاحظ
٢٧. مقدمه البخلاء ٣٩-٣٨ نقلاً عن الحيوان ٦ / ٨-٩
٢٨. الجاحظ حياته و آثاره، ٤٢٢
٢٩. الحيوان للجاحظ، ٧/ ٩
٣٠. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمن، ٣/ ١٠٧
٣١. التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ أداة القراءة مابين السطور، مجلة البعث، العدد٢٨
٣٢. الفن و مذاهبه في النثر العربي ١٠٣
٣٣. ضحي الإسلام١/ ٢٩٧
٣٤. البيان و التبيين ٢/ ٢٢
٣٥. البيان والتبيين ٣٤/٢
٣٦. البيان و التبيين، ٢/ ٦٩
٣٧. البيان و التبيين،١٢١/٢

قائمة المصادر و المراجع

- نهج البلاغة
- ابن المعتز، البديع، دارالجيل، الطبعة الأولي، ١٩٩٠
- ابن منظور، لسان العرب، دارالكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢

- امين، احمد، ضحي الإسلام، المكتبة العصرية، الطبعة الأولي، ٢٠٠٤
- بروكلمن، كارل ، تاريخ الأدب العربي، دارالمعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩١٩
- البستاني، بطرس، أدباء العرب في الجاهلية و صدر الاسلام، دارمارون عبود،١٩٧٩
- الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٩٠٨
- الجاحظ، عمروبن بحر، الحيوان (بتحقيق عبدالسلام محمد هارون)، الطبعة الأولي، مكتبة مصطفي البابي الحلبي و أولاده بمصر، ١٩٣٨
- الجاحظ، عمربن بحر، البيان و التبيين، دار و مكتبة الهلال، الطبعة الأولي، لبنان، بيروت، ١٩٨٨
- الجاحظ، عمروبن بحر، رسائل الجاحظ (بتحقيق و شرح عبدالسلام محمد هارون) مكتبة الخانجي بالقاهره، ١٩٦٤
- الجاحظ، عمروبن بحر، البخلاء، دار صادر، طبعة جديدة منقحة، بيروت (بدون تاريخ الطبع).
- الحاجري، طه محمد، الجاحظ حياته و آثاره، دارالمعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٩
- الحموي، ياقوت؛ معجم الأدباء، دارالفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠.
- روحي الفيصل، سمير، أسلوب الجاحظ، مجلة نور الأدب، العدد السادس، ٢٠١٠
- زردة،يوسف حمزة، التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ أداة القراءة ما بين السطور،الوحدة، ثقافة، مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر و التوزيع، اللاذقية، ٢٠٠٨
- زردة، يوسف حمزة، التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة البعث،العدد الثامن و العشرون، ٢٠٠٦
- الزّيات، احمدحسن، تاريخ الأدب العربي دارالمعرفة، الطبعة الثامنة،٢٠٠٤
- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت ، ١٩٩٢
- ضيف، شوقي، الفن و مذاهبه في النثر العربي، مكتبة الأندلس، الطبعة الثانية، ١٩٥٦

- كحالة، عمر رضا ، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي،بيروت، بلا تاريخ (مكتبة مشكاة الإسلامية)

- المـدني، صـدرالدين ، أنـوار الربيـع في أنـواع البـديع، ١٠٩٣ هـ (www.al-mostafa.com)

- المسعودي، ابوالحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب و معادن الجوهر،بلا تار يخ، مكتبة مشكاة الاسلامة